

أثر القرآن الكريم، والأثر اليوناني.

للقرآن الكريم أثر مباشر وأثر غير مباشر في تطور الشعرية العربية، فالأثر المباشر تمثل في جهود العلماء الذين تعرّضوا لأسلوب القرآن الكريم محاولين إثبات إعجازه البياني عن طريق مقارنته بالشعر العربي، وخصائص البيان العربي بصفة عامة، فقد استخدم علماء الإعجاز مصطلحات البديع وأبوابه للتوصل إلى إعجازه.

أما الأثر غير المباشر تمثل في تهذيب أذواق النقاد الذين تأثروا بأسلوبه في الصياغة والصور ذات التشبيهات والاستعارات الساحرة، مما جعلهم يستشهدون بهذه التشبيهات والاستعارات، وجعلوها في مقدّمة الشواهد الأدبية في كتب النقد والبلاغة.¹

أما الأثر اليوناني فتمثل في الفلسفة والمنطق، فأول من تأثر المتكلمون -الذين كانت حاجتهم الملحة للفلسفة- لدفع المطاعن عن القرآن، فكانت دراستهم للفلسفة والمنطق لتمكينهم من الحجج العقلي. وقد ظهر هذا التأثير بوضوح عند قدامة ابن جعفر (ت 337 هـ) في كتاب "نقد الشعر" والرماني (ت 384 هـ) في كتابه "النكت في إعجاز القرآن" والباقلاني (ت 403 هـ) في "إعجاز القرآن" وعبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) في "دلائل الإعجاز". كما ظهر في المدرسة المغربية التي من أبرز روادها حازم القرطاجني (ت 684 هـ) في كتابه "منهاج البلغاء"، وأبو محمد القاسم السجلماسي (ت نحو 704 هـ) في كتابه "المنزج البديع في تجنيس أساليب البديع"، ابن البناء المراكشي (ت 721 هـ) وكتابه "الروض المربع في صناعة البديع".²

وعليه يحاول هذا البحث أن يستكشف أهم رافدين تأسست عليها الشعرية العربية القديمة: القرآن الكريم، والأثر الأجنبي. فكيف نشأت هذه الشعرية؟ وإلى حدّ أثر القرآن في مقوماتها؟ وهل للرافد الأجنبي دور حاسم أم مجرد دور تكلمي في إطار المثاقفة؟ هذا ما سنحاول أن نستجليه في هذا البحث.

نشأة الشعرية العربية

اختلف النقاد العرب المحدثون في البدايات الأولى لنشأة الشعرية العربية، ففريق من الباحثين³ يرى أن مرحلة العصر الجاهلي هي المرحلة التي تطورت عنها الشعرية العربية، لأن العرب عرفوا النقد انطلاقاً من التلازم المفترض بين الشعر والنقد، فما دام لدينا شعر فلا بد أن يكون لدينا نقد.⁴

وفريق آخر⁵ قرأ النقد العربي القديم انطلاقاً من مفاهيم نقدية مستمدة من الثقافة الغربية، وانتهى برفضه للبداية الأولية للنقد، لينص أن النقد لن يظهر إلا في القرن الرابع الهجري، وقبل هذه المرحلة لا يمكن أن يعتد به. وبذلك يكون قد أعاد قراءة النقد العربي القديم من خلال تصورات ومفاهيم جديدة حول النقد، يحكمه منهج مأخوذ من ثقافة الآخر.⁶

وفريق ثالث⁷ نص على أن النقد العربي لن يظهر إلا بظهور الفلسفة وقد توصل لهذه النتيجة من خلال استقراء تاريخ النقد الأدبي في أوروبا، وما دامت الفلسفة قد تأخر ظهورها في الثقافة العربية، فطبيعي أن يتأخر ظهور النقد، ولن يظهر إلا مع ظهور الفكر الفلسفي على يد المعتزلة والأشاعرة والمتكلمين.

وفريق رابع⁸ يجيب عن سؤال: متى نشأ النقد؟ من خلال تاريخ النقد نفسه، مصحوباً ببعض التصورات الأوروبية.⁹

وفي هذا الصدد نجد أدونيس في كتابه "الشعرية العربية" يقسم الشعرية إلى أربع دراسات: الشعرية والشفوية الجاهلية؛ الشعرية والفضاء القرآني؛ الشعرية والفكر؛ الشعرية والحدثة. فهو يرى أن الشعر الجاهلي يتميز بخاصية الشفوية، لأنه لم يدون ولم يكتب، بل اعتمد في نقله على الذاكرة والحفظ والرواية من جيل إلى آخر، يقول أدونيس: «الأصل الشعري العربي في الجاهلية، نشأ شفويًا ضمن ثقافة صوتية-سماعية».¹⁰

إذن نشأ الشعر الجاهلي في بدايته نشيدًا مسموعًا لا مكتوبًا، مرتبطًا بالغناء والإنشاد والموسيقى التي كانت تعبر عن ذاتية الشاعر وانفعالاته الوجدانية النابضة المتداخلة مع مشاعر الجماعة. فقد كان الشاعر يولي أهمية كبرى للسامع، إذ كان يحرص على تجويد شعره وعلى تحسين قراءته الإنشادية من أجل التأثير على السامع وجذبه وإشراكه في معاناته وتجربته.¹¹

ويقرر أدونيس أن الخليل بن أحمد الفراهيدي هو المنظر الأول للشعرية الشفوية الجاهلية على مستوى الإيقاع العروضي، والجاحظ هو المنظر لها على المستوى اللغوي وذلك حينما فصل اللفظ عن الفكر وفضل أمة العرب على سائر الأقوام بفصاحة العربية وبلاغتها الرائعة.¹² ونقل القرآن الكريم الشعرية العربية من الشفوية إلى الكتابة وخلق حركة ثقافية وإبداعية لا نظير لها من خلال ما كتب عن القرآن والمقارنات بين النص القرآني والشعر الجاهلي الذي يمثل طريقة العرب في الكتابة الشعرية الأصلية.

2. أثر القرآن الكريم في الشعرية العربية القديمة

حين سمع العرب القرآن تأثروا به تأثرًا شديدًا ووقفوا أمام روعة نظمه موقف الإعجاب والذهول والحيرة، يقول سيد قطب: «سحر القرآن العرب منذ اللحظة الأولى، سواء منهم في ذلك من شرح الله صدره للإسلام، ومن جعل على بصره منهم غشاوة».¹³

وكان للقرآن الكريم منذ نزوله أثر في تنشيط الحركة الفكرية للعرب، حيث بدأت دراسة القرآن وتفسيره في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، وانقسم الصحابة في تفسيرهم للقرآن إلى قسمين:

قسم يتخرج من القول في القرآن ومنهم أبو بكر وعمر وعبد الله بن عمر وغيرهم، والقسم الثاني لم يتخرجوا من تفسير القرآن حسب ما فهموا من الرسول صلى الله عليه وسلم، أو بمقارنته بالشعر العربي وكلام العرب وتفسيره حسب فهمهم الخاص، ومنهم علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ومن تبعهم كالحسن البصري، وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وغيرهم.¹⁴ فالقسم الثاني هم من ساعدوا على تنشيط هذه الحركة الفكرية وإثرائها بأرائهم الخاصة.

مهّد ابن عباس بمحاولته تفسير القرآن من خلال مقارنته بالأدب العربي شعره ونثره لكثير من اللغويين من بعده، كما مهّد لقيام حركة واسعة لجمع اللغة والشعر من أفواه العرب الأقحاح. فكان هذا سببًا في حفظ العربية من الضياع، كما أدى إلى ظهور النحو.

اهتم علماء اللغة والبيان في (ق3هـ) بلغة القرآن وانقسموا إلى فئتين، الفئة الأولى العلماء الذين اهتموا بالدراسة اللغوية والنحوية لأسلوب القرآن، والفئة الثانية أصحاب الدراسات البيانية لأسلوب القرآن.¹⁵

يمثل أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت. 209 هـ) بكتابه "مجاز القرآن" التيار اللغوي لأسلوب القرآن، في حين يمثل التيار النحوي أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء في كتابه "معاني القرآن".¹⁶ أما الدراسات البيانية فيمثلها المعتزلة وعلى رأسهم الجاحظ بكتابه "نظم القرآن"، وكذلك ابن قتيبة بكتابه "مشكل القرآن".

1.2 تأثر الدراسات اللغوية بالقرآن الكريم

بدأ الاهتمام بالدراسات اللغوية في مطلع القرن الثاني من الهجرة، فكانت غاية العلماء في هذه المرحلة "تحديد الاستعمال اللغوي الصحيح" فوضعوا من أجل ذلك شروطاً وقواعد وأصولاً. وقد كان القرآن هو الحكم والفيصل في وضع هذه القواعد.¹⁷

يلخص ابن خلدون أثر القرآن في نشأة الدراسات النحوية بقوله: «فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول، وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالافات التي للمستعربين؛ والسمع أبو الملكات اللسانية، ففسدت بما ألقى إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتماد السمع، وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً ويطول بها العهد فينغلق القرآن والحديث على المفهوم، فاستنبطوا مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة».¹⁸ فلعل رغبة العرب في حفظ لغة القرآن حتى يبقى على مدى العصور في متناول فهم المسلمين، يفسر حرصهم الشديد على المحافظة على اللغة الأصلية.

بدأت حركة الجمع عندما زاد إقبال الناس على دراسة القرآن واللغة والشعر، فكان هدفها خدمة التفسير، فقد «خرج العلماء من العرب والموالي للتحصيل من البوادي فتجمع لديهم كثير، وامتألت صحفهم وخرائهم».¹⁹ وتلت حركة الجمع هذه «حركة التأليف في اللغة والشعر، وظهرت في أفق تلك الدراسات الكتب اللغوية، والشعرية».²⁰ كان لهاتين الحركتين دور كبير في إثراء الدراسات اللغوية.

وكان من نتائج اختلاط العرب بالأعاجم تفشي ظاهرة اللحن وأخذت اللغة تنحرف عن بداوتها، ونشأت لغة جديدة تختلف عن اللغة الأصلية لغة القرآن. ظهرت في كتابات الأدباء والكتاب كـ: "ابن المقفع" وحتى الشعراء كـ: "بشار بن برد".²¹ وعليه ظهرت حركة التنقية اللغوية على يد علماء مخلصين في بداية القرن الثاني أخذوا على عاتقهم الدفاع عن لغة القرآن واعتبروها الحكم بين اللغات. وأبرز هؤلاء العلماء نجد الأصمعي على رأس هذه الحركة.²²

اعتمد هؤلاء العلماء في دراساتهم اللغوية، على لغة البدو الفصحاء سواء بالسماع أو بالرواية، فاشتروا لرواية اللغة أن يكون ثقة، يقول ابن فارس: «فَلْيَتَحَرَّ أَخْذُ اللِّغَةِ أَهْلُ الْأَمَانَةِ وَالصِّدْقِ وَالثِّقَةِ وَالْعَدَالَةِ فَقَدْ بَلَّغْنَا مِنْ أَمْرِ بَعْضِ مَشِيخَةِ بَغْدَادِ مَا بَلَّغْنَا».²³ واشتروا كذلك مجازة الألفاظ لألفاظ القرآن، يقول ابن خالويه: «قد أجمع الناس جميعاً أن اللغة إذا وردت في القرآن فهي أفصح مما في غير القرآن لا خلاف في ذلك».²⁴

لقد بذل علماء العرب القدامى جهوداً مضيئة في سبيل حفظ لغة القرآن الكريم خدمة لدينهم وللمسلمين، مما ساهم في نشوء شعرية عربية خالصة.

2.2 تأثير الدراسات البيانية في الشعر بالقرآن

كان دافع العلماء للاهتمام ببيان القرآن أول الأمر الدفاع عنه وردّ المطاعن التي رمي بها، ومن ثمة إثبات إعجازه. «ولأنّ القرآن بما جمع في أسلوبه من ضروب البيان كان من بين الحوافز التي حفّزت علماء البيان والأدب، ووجّهت أنظارهم إلى فنون الأسلوب، أو التعبير الفنيّ في صوره المختلفة في القرآن وفي الشعر والنثر».²⁵ فاستخرجوا صنوف البلاغة، وتقصوا شواهدا من آي القرآن الكريم، ثمّ استشهدوا عليها بما يماثلها في الشعر للتدليل على إعجازه البلاغي.

وعليه فقد امتزجت العقيدة بالرغبة الأدبية في استطلاع بيان القرآن، و«اندفع العلماء يبحثون عن فنون القول في الشعر والنثر أثناء بحثهم ودراسهم لها في القرآن، وهكذا ظهرت دراسات مستقلة بها في أواخر القرن الثالث».²⁶ من بينها "قواعد الشعر" لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب، وكذلك كتاب "البديع" لابن المعتز، وكتاب "الكامل" لمحمد بن يزيد المبرد.

وبهذا تكون دراسة القرآن مساهمة في تشكيل الشعرية العربية، فلا شكّ «أنّ سبق الدراسات القرآنية في الأسلوب بطريقة منظّمة كان داعيا إلى استقرار فنون القول مع مصطلحاتها وحدودها وشواهدا، ممّا ساهم في بناء دراسات النقد في الشعر بالشكل الذي ظهر في كتابي "قواعد الشعر" و"البديع".²⁷

ولم يغيب الشاهد القرآني عن أغلب الدراسات النقدية في الشعر، و«كان للشاهد في تلك الدراسات أثره في رسم الخطوط الأولى في البديع وعلوم البلاغة».²⁸ وكان «كثيرا ممّا أورده ابن المعتز في البديع سبقه إليه من كتب في دراسات القرآن وبخاصة الجاحظ وابن قتيبة والمبرد».²⁹

3.2 أثر دراسات الإعجاز في تنمية الذوق الأدبي

بدأ البحث في إعجاز القرآن الكريم بالدفاع عن قوة بلاغته وسبك تأليفه لدحض معارضته، ثم ارتقى البحث إلى الكشف عن ملامح الإعجاز، فمستوياته في مختلف أغراضه وأساليبه، فكان «الفضل لدراسات الإعجاز في نشأ ذوق أدبي "قرآني" في فهم البيان وفنون القول وتقدير أسرار الجمال في الأسلوب القرآني».³⁰ ولقد وجّه هذا البحث الدارسين والعلماء إلى وضع أسس ومناهج نقدية لتمييز جيد الكلام من رديئه، والتي ستكون لاحقا أسسا ومناهجا للتمييز بين جيد الشعر من رديئه، وحسن الإبداع من قبيحه.

4.2 تأثير دراسات النقد بالقرآن الكريم

برز في القرن الرابع الهجري مذهبان متعارضان في الشعر والنقد «أحدهما المذهب البلاغي، وثانيهما المذهب العربي، أو "طريقة العرب"، كما سمّاه النقاد في ذلك العصر».³¹

ظهر مذهب البديع في النقد في دراسات مستقلة لثعلب في كتابه "نقد الشعر" وابن المعتز في كتابه "البديع"، وانسلخ بأبوابه عن الدراسات القرآنية التي سبقته، وتدخلّ العقل اليوناني عن طريق قدامة بن جعفر، «وانتقل النقد إلى بلاغة والشعر إلى فنّ تعليمي له أصول وقواعد».³²

كما شاع المذهب العربي وقوي فكان رد فعل «ضدّ مذهب البديع، والفلسفة، أو محاولات تقنين الأدب، للرجوع به إلى طبيعته الأولى العربية الأصيلة، التي تمثل القرآن والشعر القديم، شعر العرب الخالص».³³ وقد

اعتمد هذا المذهب في الشعر والنثر على القرآن، والمثل السائر، وخطب البلغاء، ومشاهير الرجال، وشعراء العرب القدماء. أمّا في النقد فاعتمد على «جمهرة من علماء اللغة، والأدب، الذين ثقفوا العربية وشربوها في قلوبهم مزوّدون ببيان القرآن، وبيان العرب».³⁴

كان أثر القرآن كبيراً في تربية الذوق الأدبي في النقد فقد «سيطر على الملكات الأدبية منذ نزل وسحر الألباب بجمال أسلوبه، وترك آثاره في شعر صدر الإسلام، فاقتبسوا من فنون أساليبه كثيراً».³⁵ هكذا كان للقرآن الكريم دور في تربية الذوق العربي وصقله إلى حد كبير عند الشعراء، والكتّاب والنقاد.

3. الأثر اليوناني في الشعرية العربية القديمة

نشطت حركة الترجمة عند العرب في القرنين الثاني والثالث الهجريين، فسَلَّطت الضوء على كثير من المصادر العلمية والفكرية الجديدة. فمن الكتب المترجمة إلى العربية نجد كتاب "الخطابة" لأرسطو، الذي ترجم في أواخر القرن الثاني الهجري، وتمّ تلخيص كتاب "الشعر" في أوائل القرن الثالث الهجري، وهما كتابان يتصلان بالخطابة والشعر اتصالاً وثيقاً.

نجد من الترجمات القديمة لكتاب "الشعر" ترجمة «أبو بشرمقي بن يونس القنائي (328هـ) من السرياني إلى العربي، ثم أفاد منه الفارابي، ثم عاد تلميذه يحيى بن عدي (ت 364هـ) فنقله نقلاً جديداً إلى العربية».³⁶

لقد ظهرت مسألة التأثير اليوناني في النقد والبلاغة العربيين واحتلّت مكانة مهمة في الدراسات المعاصرة ومن الباحثين الأوائل في هذا المجال نجد أمين الخولي في كتابه "البلاغة وأثرها في الفلسفة" (1931م)، كما نجد طه حسين في كتابه "تمهيد في البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر" في نفس السنة، وبعدها توالى الدراسات في مسألة التأثير الأرسطي.

1.3 اتجاهات تأثر النقاد والبلاغيين العرب القدماء بالثقافة اليونانية

تصنّف الدراسات المعاصرة اتجاهات النقاد والبلاغيين العرب القدماء في ثلاث تيارات:

«التيار الأول: وهو تيار اللغويين والرواة الذين غلب عليهم الطابع العربي فكانوا يقيسون البلاغة بالمقاييس العربية الخالصة».³⁷ وهذا لا ينفي عنهم قبولهم للثقافات الأجنبية، لكنهم لم يسمحوا بطغيانها على ثقافتهم العربية الأصيلة.

ويمثل التيار الثاني «النقاد والبلاغيين العرب الذين غلب عليهم التأثير اليوناني، فأخذوا به وطبقوا الكثير من مفاهيمه وأفكاره في كتبهم البلاغية والنقدية».³⁸

وأما التيار الثالث هو «تيار المتكلمين الذين شغلهم قضية إعجاز القرآن وفي مقدّمهم المعتزلة من أمثال الجاحظ».³⁹ ومن أهمّ البلاغيين الذين تظهر في كتبهم الآثار الفلسفية المنطقية الأرسطية الجاحظ، وقدامة بن جعفر، وابن وهب الكاتب، وعبد القاهر الجرجاني، وحازم القرطاجني، والسجلماسي، وابن البناء المراكشي.

2.3 اتجاهات الدراسات العربية المعاصرة في مسألة التأثير

تنحصر الدراسات المعاصرة التي اهتمت بمناقشة التأثير اليوناني ومدى حضوره في الشعرية العربية في ثلاث اتجاهات نلخصها فيما يلي:

الاتجاه الأول: «يقرّ بالتأثير اليوناني ويراه واسعاً، ويقرّ بأنّ تأثير الفلسفة في البلاغة كان كبيراً».⁴⁰ ومن أبرز من يمثل «هذا الاتجاه طه حسين، وأمين الخولي وإبراهيم مدكور، وإبراهيم سلامة، وشكري عياد وغيرهم».⁴¹

أما الاتجاه الثاني: «يرفض التأثير اليوناني، ويعتبره طرحاً مغرضاً».⁴² ويمثل هذه الدراسات كل من «فضل حسن عباس، ومحمد أبو موسى، ومحمد طاهر درويش، وعبد الحكيم حسّان وغيرهم».⁴³

والاتجاه الثالث يعتبر معتدلاً، «يحس بوجود تأثير ما لأرسطو، ولكن يراه محدوداً مع الإبقاء على صيغة الفرداء والإبداع عند العرب».⁴⁴ وخير من يمثل هذه الدراسات نجد «أحمد مطلوب، وشفيع السيّد، وإحسان عباس، وبن عيسى بطاهر وغيرهم».⁴⁵

3.3 نماذج من التأثير الأرسطي من القرن (3 هـ) إلى القرن (5 هـ)

تجمع الدراسات الحديثة حول مسألة تأثير الجاحظ بأرسطو واطلاعه على آراء اليونان، فالجاحظ «يشير إلى أرسطو في مواضع متفرقة في كتابيه "البيان والتبيين" و"الحيوان"».⁴⁶ بالإضافة إلى أنّ «كتاب "الحيوان" يعكس لنا أسلوباً أصيلاً تمثّل فيه الجاحظ أساليب أرسطو والسوفسطائيين».⁴⁷ لكنّها تختلف في طبيعة تأثير الجاحظ ومداهما ومن أيّ الطرق جاء ذلك التأثير؟

فمن الدّارسين من يرى أنّ التأثير جاء عن طريق غير مباشر بالسّماع والمحادثات الشفوية والحوار مع النصارى السريان. فقد أشار طه حسين إلى تأثير الجاحظ بأرسطو فيما كتبه بالبلاغة العربية، وأنّ الجاحظ إذن لم يقل ما قال إلّا بعد أن سمع شيئاً يروى عن آداب الأعاجم وبلاغتهم، ولكن من المرجّح جدّاً أنّ لم يخرج منها إلّا بصورة غامضة غير دقيقة، وأنّه إنّما عرف إرشادات لا قواعد، وشذرات لا كتباً.⁴⁸

ومن الدّارسين من يرى أنّ الجاحظ تأثر بصورة مباشرة عن طريق المطالعة، فأمين الخولي يقرّر أنّ الجاحظ واحد من المتأثرين الذين ظهر تأثرهم من خلال قراءته لكتب الفلاسفة من اليونان والفرس والروم.⁴⁹

أمّا ابن المعتز (296هـ) فقد أثار كتابه "البدیع" الكثير من النقاش بين المستشرقين والدّارسين المحدثين من العرب وانقسموا إلى فريقين، الفريق الأول يثبت تأثر ابن المعتز بكتابي أرسطو "الخطابة" و"الشعر". والفريق الثاني ينفي هذا التأثير جملة وتفصيلاً ويرى أنّ كتاب "البدیع" هو صناعة عربية خالصة.⁵⁰ وإذا طالعنا مقدمة ابن المعتز نجده ينفي أنّ يكون البدیع من اختراع المحدثين، يقول: «قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سمّاه المحدثون البدیع؛ ليعلم أنّ بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تقيّلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن؛ ولكنه كثّر في أشعارهم».⁵¹

وإذا انتقلنا إلى القرن الرابع نجد قدامة ابن جعفر (337هـ) في كتابه "نقد الشعر" قد استعان بالفكر اليوناني وحاول تطبيقه على البلاغة العربية كما تؤكّد الدراسات الحديثة،(*) فهو يعتبر «المحور الأهم في إشكالية التأثير اليوناني في النقد العربي، حتى إنّ اسمه يكاد يكون حجّة لمن أراد أن يثبت مدى تأثير الثقافة اليونانية عموماً، والأرسطية خصوصاً في البيان العربي».⁵² تلتقي جلّ الدراسات المعاصرة في إثبات تأثر قدامة

بكتابي أرسطو "الخطابة" و"الشعر"، لكنهما تتباين في طبيعة ومدى هذا التأثير، «فبعض الدراسات أثبتت تأثر قدامة من خلال تركيزها على الجانب الشكلي للكتاب وطريقة تبويبه وتقسيمه، وبعضها الآخر أثبتت مسألة التأثير من خلال اطلاع قدامة على فني "الخطابة" و"الشعر" الأرسطيين، في حين أثبتت دراسات أخرى التأثير من خلال دراسة مقارنة لمصطلحات قدامة ومحاولة ربطها بمصطلحات أرسطو، والتقريب بين السياقين العربي واليوناني».⁵³

وتجمع الدراسات الحديثة على أن ابن وهب الكاتب صاحب كتاب "البرهان في وجوه البيان" متأثر بالفكر اليوناني وأنه «أسرف في تطبيق القواعد اليونانية على بلاغة العرب وفنون القول».⁵⁴

وفي القرن الخامس تحقق التوفيق بين البيان العربي والبيان اليوناني، «وتعددت فيه ينابيع الثقافة بين ثقافة عربية خالصة، وثقافة أجنبية تمثلت في الكتب المترجمة عن اليونان والفرس والهند، وثقافة تجمع بينهما في إنتاج هؤلاء الذين جمعوا بين الثقافتين، الأمر الذي ساعد الدارسين في البحث عن نظريات تعلل الإعجاز القرآني».⁵⁵

خفت بريق الأفكار اليونانية في هذا القرن «بسبب تمثل الثقافة العربية الإسلامية لثقافات الأمم الأخرى».⁵⁶ غير أن ابن سينا (428هـ) عرّب كتاب "الخطابة" كما لخص كتاب "الشعر" ممّا هيأ أسباب التوفيق المذكور آنفاً.

مثل عبد القاهر الجرجاني بكتابه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" قمة البلاغة العربية واستطاع أن يصل بها إلى قمة النضج. ولعلّ هذا هو السبب وراء إثارة الباحثين العرب المعاصرين لقضية تأثر عبد القاهر بأرسطو في الفكر الحديث. واختلف في هذه القضية اختلافاً شديداً، وانقسموا إلى فريقين:⁵⁷

الفريق الأول «أقرّ لعبد القاهر بالتأثر في بعض نواحي تفكيره البلاغي والنقدي بالثقافة الأرسطية خاصة "الخطابة" و"الشعر"، وذلك عن طريق غير مباشر وهو ابن سينا الذي لخص وشرح كتابي أرسطو السابقين».⁵⁸ وأنصار هذا الفريق يصنّفون مصادر عبد القاهر إلى مصدرين هما: التراث البلاغي والنقدي السابق لمرحلته، وفلسفة أرسطو.

أمّا الفريق الثاني فقد نفى تأثر عبد القاهر بأرسطو لأنّ مصادره مستوحاة من اطلاعه على كتب الثقافة العربية قبله بالإضافة إلى وضوح شخصيته في التأليف البلاغي.⁵⁹

4.3 التأثير الأرسطي في المدرسة المغربية

يمكن تقسيم البحث البلاغي والنقدي في المغرب العربي حسب التأسيس إلى اتجاهين: اتجاه عربي خالص يعتمد على الذوق العربي في الحكم على النصوص، وإن كان متأثراً بثقافات أجنبية، لكنّها كانت خافتة. واتجاه فلسفي متأثر بالفكر اليوناني والنقد الأرسطي.

وما يهّمنا هنا هو الاتجاه الثاني ومن أبرز رواده حازم القرطاجني في كتابه "منهاج البلغاء"، أبو محمد القاسم السجلماسي وكتابه "المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع"، ابن البناء المراكشي وكتابه "الروض المربع في صناعة البديع".

يجمع رواد المدرسة المغربية المذكورين أنفاً بين الموروث البلاغي العربي والتراث اليوناني الأرسطي بواسطة فلسفة الفرائي وابن سينا وابن رشد خاصة.

أدى ظهور كتاب حازم القرطاجني (684هـ) "منهاج البلغاء" إلى حسم الأراء في مسألة التأثير الأرسطي في النقد العربي، واعتبر صورة شاهدة على التأثير اليوناني، فحازم متأثر أشدّ التأثير بمؤلفات ابن سينا، فقد نقل الكثير من آرائه وتعاريفه. وتجمع الدراسات الحديثة أنّ حازما «متأثر بالتراث الأرسطي الذي قرأه واطّلع عليه بأسلوب غير مباشر، وأنّ الطريق التي سلكها إلى تراث أرسطو هي طريق الفلاسفة المسلمين».⁶⁰ فقد استفاد من معطيات الدرس البلاغي العربي ومعطيات الدرس الأرسطي فهو «يمثل مرحلة المزاجية بين الثقافتين».⁶¹

ويعدّ السّجلّ ماسي (704هـ) صاحب كتاب "المنزع" من نقاد القرن الثامن بالمغرب العربي، ذو ثقافة موسوعية وهو من رواد المدرسة الفلسفية العربية المغربية، تنوّعت مرجعياته التي استند إليها بين الفكر اليوناني والفلسفة الإسلامية والتراث العربي، وهذه الثقافة الواسعة ألّف كتاب "المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع" الذي يعد اتجاهها جديداً، ويؤكد السّجلّ ماسي «أنّه يضع منهاجاً جديداً لصناعة البديع في إطار علم البيان».⁶² فهو أكثر تحديداً وفهماً للنظريات الأرسطية في النقد والبلاغة. وتُجمع الدراسات الحديثة على تمكّن السّجلّ ماسي من تمثّل نظريات أرسطو وشراحها من العرب واليونان، وتوظيفها عربياً في النقد والبلاغة، فمحقق كتاب "المنزع" يطرح منذ البداية عمق التفاعل بين العرب واليونان في موضوع النقد والبلاغة ويقرّر أنّ الكتاب يمثّل باتجاهه الهليليني ومنهجه الفلسفي في النقد الأدبي والبلاغة وجهاً جديداً. وقد عدّه المحقق متجاوزاً للفكر اليوناني ولنظريات أرسطو.⁶³

أمّا ابن البنّاء (721هـ) من خلال كتابه "الروض المربع" تظهر ملامح التأثير بالفكر اليوناني، والأرسطي خاصة، فمحقق الكتاب رضوان بن شقرون في مقدّمته للكتاب حاول أن يتوقّف عند بعض النصوص التي تنسجم مع نصوص أرسطو ومقولاته، ويبيّن أنّه يسلك الاتجاه الفلسفي المنطقي خاصة في التفكير والبرهان والاستدلال.⁶⁴

4. خاتمة:

نستخلص ممّا سبق أنّ الشعرية العربية القديمة كما يرى أدونيس مرّت بثلاث مراحل في نشأتها وتطوّرها، فمن الشعرية الشفوية الجاهلية، إلى شعرية الكتابة التي تأسست مع القرآن، إلى شعرية الفكر المستقاة من الفكر اليوناني.

ونحن نرى في خاتمة هذا البحث أنّ القرآن الكريم يعتبر المحفز والرّافد الأول الذي تأسست عليه الشعرية العربية القديمة، والفكر اليوناني هو المكمل لهذه الشعرية.

فقد ساهم القرآن في إثارة بعض المسائل الفنيّة الجمالية في الأسلوب، وكان له الفضل في توجيه دراسات النقد العربي في مختلف مراحلها، وذلك لما امتاز به أسلوبه من روعة في التعبير وجمال في الأداء، وهذا كان له الأثر الأكبر في مقاييس الأدب وموازينه، وكانت شواهد القرآن الحكم والمرجع في فنون القول وضروب الأساليب.

كما كان للتراث اليوناني عامة والأرسطي خاصة تأثير مكمل في البلاغة والنقد العربيين، وهي قضية ثابتة تؤكدها النصوص المتوافرة في مدونات البلاغة والنقد، سواء بصيغة مباشرة أو غير مباشرة. ولكننا نجد تفاوتاً بين مواقف النقاد والبلاغيين العرب في مدى حضور التأثير في كتب البلاغة وطبيعة ذلك الحضور وكيفيته. وانقسمت دراسات العرب المحدثين من مسألة التأثير إلى ثلاث اتجاهات: اتجاه يعمّق مسألة التأثير ويراهنا واسعة ومنتشرة في بعض كتب البلاغة والنقد، واتجاه وسط يجعل التأثير محدوداً، واتجاه يرفض التأثير مطلقاً.

ومهما يكن فإننا نعتبر الشعرية العربية القديمة نشأت عربية خالصة، لأنّها دارت حول كتاب العرب المقدّس، الذي نزل بلغتهم في بيئة تميّزت بعظيم بيانها، واقتدارها على أساليب التعبير، كما يظهر ذلك في شعرهم. وإننا نعتبر من جهة أخرى قضية التأثير اليوناني مسألة طبيعية، نضعها في إطار المواقفة بين الشعوب والثقافات وهو أمر يحصل لدى جميع الأمم.

5. الهوامش:

- 1 - ينظر: زغلول سلام محمد، أثر القرآن في تطوّر النقد العربي حتى أواخر القرن الرابع، مكتبة الشباب، الطبعة الأولى، ص 31-32.
- 2 - سالم رامي، التأثير اليوناني في النقد والبلاغة العربيين، من منظور الدراسات العربية المعاصرة، الطبعة الأولى 2014، عالم الكتب الجديد للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ص 30.
- 3 - ومن أشهر رواد هذا الفريق: الأستاذ طه أحمد إبراهيم والأستاذ محمد زغلول سلام.
- 4 - ينظر: رشيد العبيدي، الأدب ومذاهب النقد فيه، الطبعة الأولى، 1955، ص 98.
- 5 - ومن رواد هذه الفئة د. محمد مندور ابتداء من 1944 سنة تأليف كتاب "النقد المنهجي عند العرب".
- 6 - ينظر: محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، طبعة دار نهضة مصر، ص 05.
- 7 - وحامل مشعل هذا الطرح الدكتور محمد غنيمي هلال في مؤلفه: "النقد الأدبي الحديث" الصادر سنة 1958.
- 8 - ويمثله الدكتور إحسان عباس سنة 1971 في مؤلفه "تاريخ النقد الأدبي".
- 9 - ينظر: إحسان عباس تاريخ النقد الأدبي عند العرب، طبعة دار الثقافة بيروت، ص 14.
- 10 - أدونيس، الشعرية العربية، دار الآداب، بيروت، الطبعة 2، ماي 1984، ص 05.
- 11 - ينظر: المرجع نفسه، ص 05.
- 12 - ينظر: المرجع نفسه، ص 05.
- 13 - سيّد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، ط 16، القاهرة، 1423/2002هـ، ص 11.
- 14 - ينظر: أثر القرآن في تطوّر النقد العربي حتى أواخر القرن الرابع، ص 31-32.
- 15 - المرجع نفسه، ص 33-38.
- 16 - نفسه، ص ن
- 17 - المرجع نفسه، ص 151-155.
- 18 - عبد الرحمان ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: عبد الواحد موافي، ج 1، ص 502.
- 19 - أثر القرآن في تطوّر النقد العربي حتى أواخر القرن الرابع، ص 153.
- 20 - المرجع نفسه، ص 153.
- 21 - ينظر: المرجع نفسه، ص 153-154.
- 22 - ينظر: المرجع نفسه، ص 154 وما بعدها.

- 23 - جلال الدين السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1418هـ 1998م، مج 1، ص 107.
- 24 - المصدر نفسه، مج 1، ص 168.
- 25 - أثر القرآن في تطوّر النقد، ص 208.
- 26 - المرجع نفسه، ص 208.
- 27 - المرجع نفسه، ص 216.
- 28 - المرجع نفسه، ص 217.
- 29 - المرجع نفسه، ص 224.
- 30 - المرجع نفسه، ص 233.
- 31 - المرجع نفسه، ص 333.
- 32 - المرجع نفسه، ص 332.
- 33 - المرجع نفسه، ص 333.
- 34 - أثر القرآن في تطوّر النقد، ص 334.
- 35 - المرجع نفسه، ص 334.
- 36 - إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 187.
- 37 - التأثير اليوناني في النقد والبلاغة العربيين، من منظور الدراسات العربية المعاصرة، ص 30.
- 38 - المرجع نفسه، ص 31.
- 39 - المرجع نفسه، ص 31.
- 40 - المرجع نفسه، ص 67.
- 41 - المرجع نفسه، ص ن.
- 42 - المرجع نفسه، ص ن.
- 43 - المرجع نفسه، ص 68.
- 44 - المرجع نفسه، ص ن.
- 45 - المرجع نفسه، ص ن.
- 46 - المرجع نفسه، ص 107.
- 47 - المرجع نفسه، ص ن.
- 48 - ينظر: طه حسين، تمهيد في البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر، ضمن كتاب نقد النثر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1982، ص 03.
- 49 - ينظر: أمين الخولي، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، دار المعرفة، ط 1، 1961، ص 146.
- 50 - ينظر: سالم رامي، التأثير اليوناني، ص 131-139.
- 51 - ابن المعتز عبد الله، البديع في البديع، الطبعة الأولى 1410هـ - 1990م، دار الجيل، ص 73.
- (*) - مثل دراسة أمين الخولي، ومحمد سلام زغلول، وشوقي ضيف وغيرهم.
- 52 - سالم رامي، التأثير اليوناني، ص 143.
- 53 - المرجع نفسه، ص 144.
- 54 - المرجع نفسه، ص 177.
- 55 - المرجع نفسه، ص 185.
- 56 - المرجع نفسه، ص 186.
- 57 - المرجع نفسه، ص 188.

- 58 – المرجع نفسه، ص 188.
- 59 – ينظر: المرجع نفسه، ص 189.
- 60 – ينظر: المرجع نفسه، ص 237.
- 61 – ينظر: المرجع نفسه، ص 237.
- 62 – السَّجْلَمَاسِي أَبُو مُحَمَّد الْقَاسِم، الطبعة الأولى 1401/1980، المنزَع البديع في تجنيس أساليب البديع، تحقيق: علاء الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، مقدمة المحقق، ص 261.
- 63 – المصدر السابق، مقدمة المحقق، الصفحات: 07، 43، 55.
- 64 – العددي ابن البناء المراكشي، 1985، الروض الريع في صناعة البديع، تحقيق: رضوان بن شقرون، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، مقدمة المحقق، ص: 34.